حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

مجلة دولية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية والعصر الوسيط

Journal of Medieval and Islamic History

An International Review Interested in Byzantine, Medieval and Islamic History

(JMIH)

ISSN 2090-2883

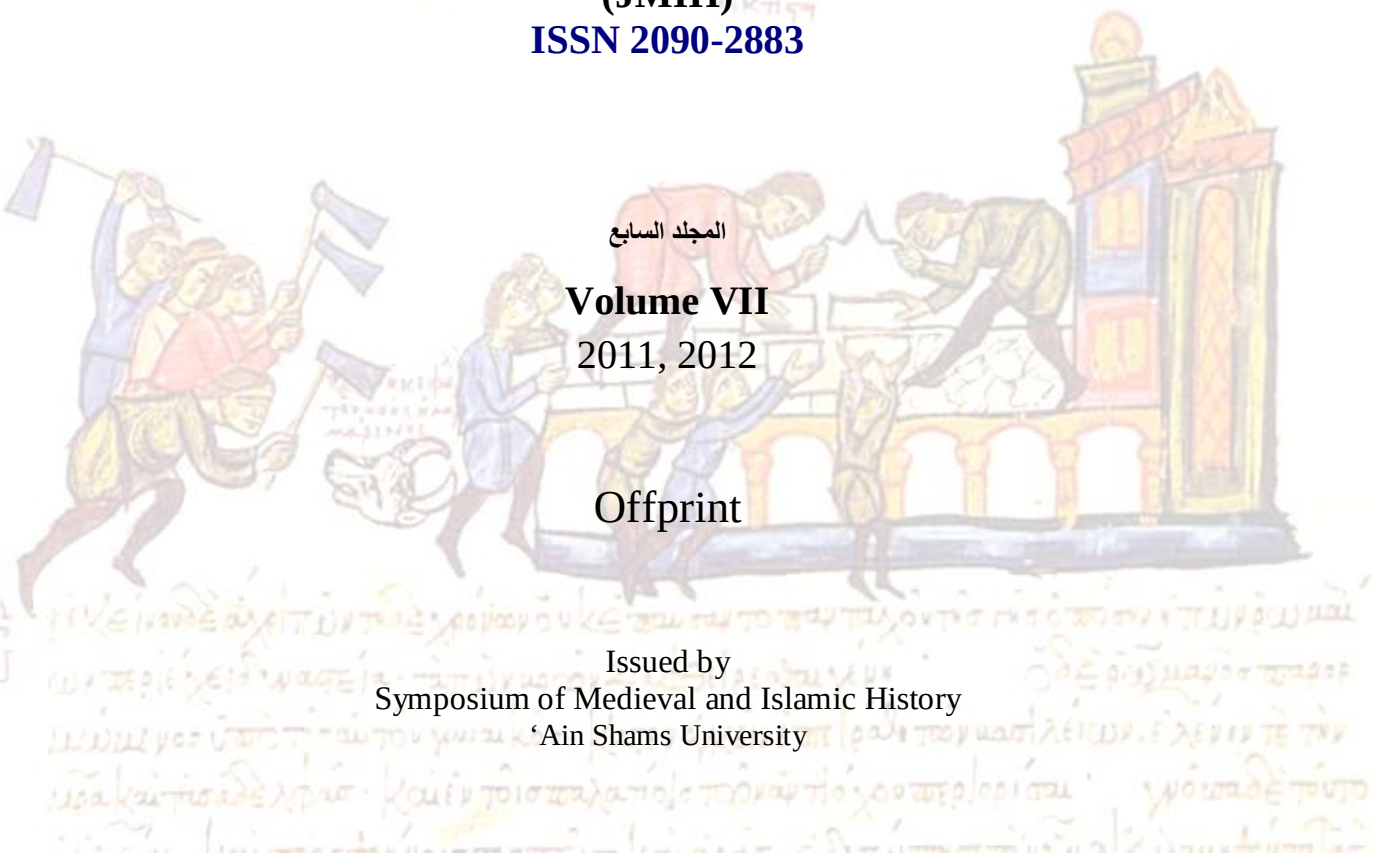

المجلد السابع

Volume VII

2011, 2012

Offprint

Issued by
Symposium of Medieval and Islamic History
'Ain Shams University

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

مجلة دولية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية والعصر الوسيط
يصدرها: سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس

المشرف العـــام: ا. د. اسحـــــق عـــبيـــد

رئيس التحريـــر: ا. د. طـــارق منصـــور

مستشارا المجلة: ا. د. محمـــود إسماعيـــل

ا.د. فتحـــي أبـــو سيـــف

مساعدا التحرير: ا. د. محاسن الوقاد، د. عبد العزيز رمضان

سكرتارية المجلة: د. محمد نصر عبد الرحمن

د. سند أحمد سند

اللجنة العلمية الداخلية:ا.د. زبيدة محمد عطا

ا.د. قاسم عبده قاسم

ا.د. محمود سعيد عمران

ا.د. وسام عبد العزيز فرج

اللجنة العلمية الدولية: ا.د. بيتر فرانكوبان، اوكسفورد، بريطانيا.

ا.د. تاكسيارخس كولياس، أثينا، جمهورية اليونان.

ا.د. جوناثان شيبرد، اوكسفورد، بريطانيا.

ا.د. جوان مونفرر سالا، اسبانيا.

ا.د. سهيل زكار، دمشق، الجمهورية العربية السورية.

ا.د. فاسيليوس خرستيدس، أثينا، جمهورية اليونان.

ا.د. مايكل كوك، برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية.

النشر والتوزيع: دار الفكر العربي، ٩٤ شارع عباس العقاد، مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية. ت : ٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٨٤ – ٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٧٩٤ فاكس : ٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٧٣٥ الموقع الاليكتروني: http://darelfikrelarabi.com

- ترسل المراسلات والبحوث باسم رئيس تحرير المجلة على العنوان التالي: كليـــة الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، جمهورية مصر العربية. الرمز البريـــدي ١١٥٦٦، فـــاكس: ٠٠٢٠٢-٢٦٨٥١٤٣٢ بريد اليكتروني tm_jmih@hotmail.com ، شريطة ألا تكون قـــد سبق نشرها في مكان آخر، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلي IBM ، Word XP or 2003، Windows XP حسب المواصفات التالية:

١ - البحوث المكتوبة باللغة العربية:

- العنوان الرئيس فونت ١٦ Heading Bold، العنوان الفرعي فونت ١٣ أسود.
- الخط Simplified Arabic ، فونت ١٢.
- الهوامش سفلية، فونت ١٠، ترقيم متتالي من قائمة إدراج.
- المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش.
- مواصفات النص ١٢.٥ X ٢٠.٥سم، بدون الترقيم.

٢ - البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

- العنوان الرئيس فونت ١٢ أسود ، العنوان الفرعي فونت ١٢ أسود، الهوامش فونت ١٠.
- الخط Times New Roman ، فونت ١٢.
- المسافة بين السطور single للنص ، exact للهوامش.
- مواصفات النص 12.5 X 20.5 سم بدون الترقيم.
- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن مقاس٣.٥ أو على CD.
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر يونيو من كل عام.
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسي للبحث مباشرة.

شروط النشر:

١. تُقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.
٢. يقدم الباحث نسختين مطبوعتين من بحثه بالإضافة إلى نسخة على الـــ CD.
٣. ينبغي ألا يكون البحث المقدم للنشر قد سبق نشره في دورية من الدوريات المعتمدة.
٤. يرفق الباحث مع بحثه ملخصاً باللغة العربية وآخر باللغة الإنجليزية.

٥. ينبغي ألا يكون البحث المقدم للنشر جزءً من رسالتي الماجستير أو الدكتوراه الخاصة بمؤلف البحث.

٦. أن يتسم العمل المقدم بالأصالة والجدية، وأن يكون موثقاً توثيقاً علمياً، معتمداً على المصادر الأصلية والمراجع المعتمدة.

٧. تحكيم البحوث يكون سرياً، ويقوم به اثنان من المحكمين الدوليين بمعرفة المجلة.

٨. يخطر الباحث بنتيجة التحكيم سواءً بالرفض أم القبول. ويمكن للباحث معرفة أسباب عدم النشر دون الإشارة إلى هوية أو أسماء المحكمين.

٩. بعد أن ينشر الباحث بحثه أو دراسته بالمجلة لا يحق له إعادة نشره في أي مكان آخر إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وبعد حصوله على إذن خطي من إدارة المجلة؛ وإلا سوف يحرم من النشر بالمجلة لمدة خمس سنوات تالية.

١٠. يزود الباحث بخمس مستلات من بحثه وعدد من الإصدار.

١١. على الباحث الالتزام بقواعد الكتابة والتوثيق طبقا لنظام المجلة وكذلك مختصر الدوريات المنشور على موقعها الإليكتروني: http://jmih.zxq.net.

شكر وتقدير*

تتقدم هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط بخالص الشكر والتقدير إلى الأساتذة الأجلاء الذين تكرموا بتحكيم البحوث الواردة في هذا العدد، متمنين لهم دوام التوفيق، وهم:

أ.د. طارق منصور أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب بجامعتي عين شمس (مصر) والطائف (السعودية).

د. عبد العزيز رمضان أستاذ التاريخ الوسيط المشارك، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

أ.د. عبد الله الربيعي أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

أ.د. محاسن الوقاد أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.

أ.د. محمود إسماعيل أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.

أ.د. محمود سعيد عمران أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائياً.

المشاركون في العدد*

خالد حسين محمود	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر.
خلفات مفتاح	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية الآداب، جامعة المسيلة، الجزائر.
عائشة مرشود الحربي	مدرس (أستاذ مساعد) التاريخ الوسيط، جامعة طيبة، المدينة المنورة، السعودية.
لخضر بولطيف	أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة المسيلة، الجزائر.
المتولي السيد تميم	مدرس تاريخ العصور الوسطى (أستاذ مساعد) ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، فرع دمنهور، مصر.
محمد الغضبان	أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة، تونس.
محمد عبد الحميد سعيد	أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – تونس
محي الدين لاغة	أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة، تونس.
منذر الحايك	أستاذ التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة القلمون، سورية.
نجلاء حسني مبارك	مدرس التاريخ الإسلامي (أستاذ مساعد) ، مصر.
ياسر أحمد نور	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية التربية، جامعة المنصورة، مصر.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائياً، وكذلك البحوث.

المحتويـات

أولاً: البحوث العربـية

شكر وتقدير..... ز

المشاركون في العدد ..... ط

المحتويات..... ك

تقديم..... م

- **خالد حسين**: الجانب السياسي في حياة الفقيه أبي عمران الفاسي..... ٣

- **خلفات مفتاح**: دور علماء زواوة في تأطير الحيـاة الفكريـة فـي مـصر والأندلس..... ٦٣

- **عائشة بنت رشود الحربي**: الفاطميون وجهادهم المقدس ضد جودفري حامي القبر المقدس..... ٩٤

- **لخضر بولطيف**: الفقيه محمد بن سليمان اليفرني الكومي الندرومي صـورة من واقع المشهد الثقافي في مجتمع الغرب الإسلامي..... ١٢٦

- **المتولي السيد تميم**، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين الروس في عصر روسيا الكييفية..... ١٥٢

- **محمد الغضبان**، عودة للإمام المازري وبعض مـسائله المحيّـرة: نازلـة الدنانير المغشوشة نموذجاً..... ١٩٢

- **محمد عبد الحميد سعيد:** صورة السلطان في الكتابات الدعائية الرسـولية: السلطان الأفضل عباس بن علي نموذجاً..... ٢٣٦

- **محي الدين لاغه**، تداخل الشفوي والمكتوب في تاريخ المغرب الإسـلامي: الكاهنة أنموذجاً..... ٢٧٦

- **منذر الحايك**، الشاميون والفرنج: تصور الآخـر فـي عـصر الحـروب الصليبـية..... ٢٩٦

- **نجلاء حسني مبارك:** أثر ابن برجان في حركة المريدين بالأندلس..... ٣٢٤

- **ياسر نور**، علماء الفيوم ودورهم في الحياة العلمية من العصر العباسي الأول حتى نهاية العصر المملوكي..... ٣٦٨-٤٠٦

تقـــديم

يسعد هيئة تحرير "**حولية التاريخ الإسلامي والوسيط**"، في ثوبها الجديد، بعد أن حـــصلت علـــى رقـــم التـــصنيف الـــدولي ودشـــنت موقعهـــا الإليكترونـــي (http://jmih.zxq.net) أن تقدم للقارئ عامة والباحث خاصة العدد الـــسابع الـــذي يحوى بين جنباته، وكعادة المجلة، مجموعة طيبة ومتميزة من الدراســـات والبحـــوث التي تتسم بالعمق والجدية والأصالة التاريخية. ويتميز هذا العدد بأن الطابع المغربي-الأندلسي يطغى عليه، فسبعة بحوث من جملة بحوث العدد البالغة أحد عشر بحثا تدور حول قضايا عدة من تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي الوسيط. أما بقيـــة بحوث العدد فتتباين موضوعاتها ما بين موضوعات في الحروب الـــصليبية ومـــصر الإسلامية وروسيا الكييفية.

وهذا المجلد يحوي بين جنباته مجموعة متميزة من المـــؤرخين المـــصريين وغير المصريين الذين يشار إليهم بالبنان. ويفخر قسم التاريخ بآداب عين شمس وهيئة تحرير المجلة بأنها دوما تجمع كل المؤرخين العرب وغيـــر العـــرب أيـــضاً علـــى صفحاتها. غير أن هذا العدد يتميز بثوب عربي خالص، نسجت خيوطه من بنات أفكار مؤرخينا من المحيط إلى الخليج.

ولا يسع هيئة تحرير الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تتقدم بالشكر للأستاذ الدكتور طارق منصور، على دأبه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المـــادة العلميـــة التي ضمها هذا العدد، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله من إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق.

وإنه مما يسعد أمانة السمنار وهيئة تحرير الحولية بالغ السعادة أن تتلقي كل الملاحظات والمقترحات التي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بهـــا إلـــي مكانة علمية عالمية مرموقة ترتجيها وإليهـــا نـــسعى علـــى بريـــدها الاليكترونـــي: tm_jmih@hotmail.com.

هيئـــة التحريـــر

دور علماء زواوة في تأطير الحياة الفكرية في مصر والأندلس

د. خلفات مفتاح•

جامعة المسيلة -قسم التاريخ

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

أعطى الحضور القوي للجالية المغربية في المشرق الإسلامي إهتمام عدد كبير من الباحثين والأكاديميين سواء كان ذلك في دراسات مستقلة أم ضمن أعمال تناولت جهود نخبة فكرية تميزت بأعمالها الجليلة في شتى مناحي الحياة (السياسية، العسكرية ، الاقتصادية ، الثقافية).

لكن، وإن كنا نقر بأهمية وجدية مثل هذه الدراسات التي تشيد بالتفاعل الضاري بين ضفتي العالم الإسلامي، إلا أن ما يعاب عليها هوالتقصير الحاصل في الحديث عن جهود علماء المغرب الأوسط وبخاصة من قبيلة زواوة واكتفت بإشارات محتشمة وخجولة لا تعكس عطاءاتهم الفكرية ودورهم الفعال في النقلة النوعية التي عرفتها مصر خاصة على الصعيد المذهبي أوملئ الفراغ الذي ترتب عن هجرة علماء الأندلس نحوالمشرق ومن هذا المنظور كان إهتمامنا بدور النخبة العلمية في مصر والأندلس ردا على تلك النعوت التي وصف بها المغاربة المتهمين بمحدودية تفكيرهم وتعليمهم ، إنضاف إلى هذا قناعتنا بضرورة الحفر التاريخي في مآثر علماء قبيلة زواوة بكشف النقاب عن إسهاماتهم في الحضارة العربية الإسلامية من خلال نفض الغبار عن علمائها الذين لا تزال جهودهم العلمية والفكرية رهينة كتب الطبقات والتراجم .

إسهامات علماء زواوة في مصر والأندلس:

أ- إسهاماتهم في مصر:

كان لسياسة الأيوبيين (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١- ١٢٥٠م) في استقطاب رجالات العلم والفكر من مختلف أنحاء العالم الإسلامي أثرا واضحا في تشجيع هؤلاء العلماء على القدوم إلى هذه البلاد، لما وفروه من مستلزمات تعليمية من مدارس وخوانق وربط ومساكن وحمامات ومستشفيات، وجد فيها الطلبة العلم كل الرعاية والاهتمام، وبجهود هؤلاء الوافدين

• أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة المسيلة، الجزائر.

تحولت مصر إلى قطب سياسي وحضاري ليس باعتبارها عاصمة الدولة فحسب، بل إلى ما وصلت إليه من تطور وازدهار على جميع الأصعدة[١].

وغير خاف أن مظاهر الرقي العلمي الذي وصلت إليه، مدينة فيه لجهود العديد من العلماء الذين وفدوا إليها من المشرق والمغرب وبخاصة علماء زواوة، الذين شاركوا في بناء هذا الصرح الحضاري كل حسب تخصصه، ويأتي في مقدمة هؤلاء.

شرف الدين الزواوي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م):

هوأبوالروح عيسى بن مسعود بن منصور بن يحي شرف الدين الزواوي، ولد في بنى منقلات إحدى فروع قبيلة زواوة سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م وفيها تلقى علومه على يد أبي محمد عبد الصمد ثم انتقل إلى بجاية وجلس إلى فقيهها أبي يوسف بن يعقوب الزواوي (ت٦٩٠هـ/١٢٩١م) وحفظ عنه مختصرا بن الحاجب الفرعي خلال ثلاثة أشهر، وقيل ستة أشهر ونصف، وزاد عليه موطأ مالك، [٢] وبقي يتردد على مجالس العلم وحلقات الدرس لمدة عشرين سنة، ثم كانت رحلته إلى المشرق من أجل تغذية طموحه العلمي فزار عددا من الحواضر العلمية منها مصر والإسكندرية ودمشق والخليل،[٣] التقى فيها بخيرة علماء المذهب المالكي فسمع من شرف الدين الدمياطي بمصر، وعن قاضي القضاة جمال الدين الزواوي (ت ٧١٧هـ/١٣١٩م) بدمشق التي مكث بها سبع سنوات يشتغل ما بين نيابة القضاء والإقراء في المسجد الأموي،[٤] لكنه في الأخير آثر الرجوع إلى مصر حيث تقيم أسرته، ولعل نبوغه

---

[1] علي أحمد، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي، دار شمأل، دمشق، ١٩٩٥، ص ١٠٦-١٠٧.

[2] الصفدي، عيان العصر وأعوان النصر تح علي أبوزيد وآخرون ،تقديم مازن عبد القادر مبارك ط١ دار الفكر دمشق سوريا ، مج٣، ص ٧٢٧؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،، ط١، ضبطه وصححه عبد الوارث محمد على ، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ج٣، ص ١٢٥؛ ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.، ص ١٨٢-١٨٣.

[3] ابن حجر، المصدر السابق، ص ١٢٥؛ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر، د.و.م.ج ، الجزائر، ١٩٨٢. تاريخ الجزائر، ص ١٧٢.

[4] الصفدي، المصدر السابق، مج٣، ص ٧٢٧؛ الديباج، ص ١٨٣.

الفكري وتضلعه في الدراسات الفقهية مع قوة حفظه للمذهب المالكي وبراعته في فهم مسائله وقضاياه أهلته بأن يكون مفتيا ونائبا للقاضي تقي الدين الأخنائي.[٥]

وتقوم شهادة ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ/١٣٠١م) دليلا قاطعا على ما وصل إليه شرف الدين من قوة الحفظ وعمق التحصيل، وعبر عن ذلك بقوله "كان إماما في الفقه، وإليه انتهت رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية والشامية معا".[٦]

وغني عن القول أنه رغم أهمية المنصب والمكانة الاجتماعية التي حضي بها شرف الدين الزواوي، إلا أنه لم يلبث أن تنازل عن وظيفته واتجه إلى التدريس والتصنيف، وأسهم بجهود كبيرة في تنشيط حلقات الدرس في الفقه والقراءات بجامع الأزهر، [٧] وتولى مشيخة

---

[5] هو إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الأخنائي، كان شافعيا ثم رجع مالكيا، ولي الحسبة ونظر الخزانة والقضاء سنة ٧٦٣هـ /١٣٦٥م، فاشتهر بعدله وسداد رأيه، لا يقبل وسيلة ولا شفاعة لأحد (ت ٧٧٧ هـ/١٣٧٧م)؛ انظر التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، تح أبويحيى عبد الله الكندري ط١ ، دار ابن حزم بيروت لبنان ٢٠٠٢ ص ٦٠ ؛ ولكن الملفت للانتباه في هذا الباب أن منصب القاضي المالكي في الديار المصرية تعطل طيلة الحكم الأيوبي بينما كان موجودا في عهد الفاطميين (٣٦٢-٥٦٧هـ/٩٧٣-١١٧١م)، حيث كان القضاة الأربعة كل قاضي لمذهبه، فكان للشافعية سلطان بن رشاد، والمالكية أبي محمد بن الليثي، وللإسماعيلية أبوالفضل بن الأزرق، وبن أبي كامل للأمامية، واستمر الحال كذلك حتى زمن الظاهر بيبرس (ت ٦٧٧هـ) فصير القضاة أربعة، حيث ضم للقاضي الشافعي ثلاث قضاة، حنفي، مالكي، حنبلي وكان ذلك سنة ٦٦٣هـ، أما السبب في ذلك وحسب ما يستشف من النصوص التاريخية هوكثرة توقف القاضي تقي الدين بن بنت الأعز في أمور تخالف المذهب الشافعي وتوافق غيره من المذاهب، فأشار الأمير جمال الدين إيدغدي العزيزي على السلطان بأن يولي من كل مذهب قاضيا مستقلا، يحكم بمقتضى مذهبه، فأجابه السلطان إلى ذلك؛ للمزيد من التفاصيل أكثر انظر القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية، ج٤، ص ص ٣٥، ٣٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٦، ص ٢٤٥؛ محمد عرنوس، ، تاريخ القضاء في الإسلام نشر مكتبات الكليات الأزهرية، د.ت. ، ص ١٠٥، ١٠٦؛ عمار بهار، الحياة الفكرية في مصر عصر الدولة المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، أطروحة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ٨٤.

(6) الديباج، ص ١٨٣.

[7] ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٣، ص ١٢٥.

الزاوية المالكية[٨] ودرس بالمنكوتمرية [٩] بالقاهرة وأعاد بالناصرية والصالحية[١٠] فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم، وبعد أن تقدم به السن تنازل لولده علي عن التدريس بالزاوية، واستقر عنده كمعيد، ولم يزل كذلك إلى أن توفي في رجب سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤٢م. [١١].

أما عن مصنفاته العلمية فقد كتب شرح مسلم في اثني عشر مجلدا سماه "إكمال الإكمال"، جمع فيه أقوال المازري والقاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ/١١٤٥م) والنووي (ت ٦٧٦ هـ/١٢٧٦م)، وأتى بفوائد جليلة من ابن عبد البر النمري (ت ٤٦٠ هـ/١٠٦٧م) [١٢] والباجي (٤٧٤ هـ/١٠٨١م) [١٣] وغيرهما، وشرح مختصر أبي عمر بن الحاجب في الفقه فتوصل فيه إلى كتاب الصيد في سبعة مجلدات[١٤]،

---

[8] الصفدي، المصدر السابق، مج٣، ص ٧٢٨؛ وتعتبر المشيخة من أعلى المراتب العلمية، وتنقسم بدورها إلى قسمين، الأول مشيخة أحد العلوم التي تدرس بالمدرسة من الحديث أوالفقه، النحو، الإقراء، وصاحب هذه المدرسة يكون مسؤولا عن كل ما يتعلق بتدريس اختصاصه يلي ذلك مرتبة المدرس الذي يختص بتدريس مادة معينة أوأكثر، يساعده في مهمته شخص مؤهل يطلق عليه اسم المعيد، يتولى تدريس المادة المقررة، وقد اشترط فقهاء الإسلام بأن يكون المدرس ذا رياسة وفضل وعقل ومهابة وعدالة ومحقة في الفضل وعطف على الضعفاء، يقرب المحصلين ويرغب المشتغلين وينصف الباحثين حرصا على النفع مواظبا على الإفادة، أما عن المعيد فيشترط أن يكون من الصلحاء، صبورا على أخلاق الطلبة حريصا على فائدتهم وانتفاعهم به، قائما بوظيفة أشغالهم؛ حول هذا الموضوع انظر، ابن جماعة، المصدر السابق، ص ص ٢٥٨- ٢٥٩؛ علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، دار طلاس، ط١، دمشق، ١٩٨٩، ص ٢٠٨.

[9] المدرسة المنكوتمرية، تقع بحارة بهاء الدين بالقاهرة، بناها بجوار داره الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي نائب السلطان بمصر، فأكمل بنائها في صفر ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، وعمل بها درسا للمالكية؛ انظر المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مج٤، تحقيق أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٣، ص ٥٢٢.

[10] الصفدي، المصدر السابق، مج٣، ص ٧٢٨.

[11] نفسه، ص ٧٢٨.

[12] رغم كونه على المذهب الشافعي كانت روائع إنتاجه ودراساته الفقهية في الفقه المالكي منها كتابه الموسوم "بالتمهيد لما في موطأ من المعاني والأسانيد" في سبعين جزءا.

[13] من مؤلفاته، كتابان في شرح الموطأ، الأول الاستيفاء، انتخب منه فوائد سماها "المنتقى" في سبع مجلدات، وله أيضا أحكام الفصول في أحكام الأصول، و"الإيماء"، ومختصر المختصر في مسائل المدونة، والإشارة في أصول الفقه، والحدود، والسراج في الخلاف.

[14] الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، ج١، تحقيق خليل منصور، ط١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٥٣؛ لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب في

واختصر جامع ابن يونس الفقهي (ت ٤٥١هـ/١٠٥١م)،[١٥] وشرح المدونة، وصنف في الوثائق والمناسك وفي علم المساحة لمعرفته بعلم الحساب،[١٦] كما صنف في الكتب المنقبية منها مناقب الإمام مالك[١٧] والشافعي، ورد على ابن تيمية في مسألة الطلاق، وله في التاريخ كتاب حافل في نحوعشر مجلدات، ذكر فيه عن أول بدء الدنيا وقصص الأنبياء وأخبار الأمم من سيدنا آدم إلى زمانه[١٨].

وله أيضا شرح على الرسالة العضدية في علم الوضع،[١٩] هذا إلى جانب معرفته بجغرافيا الأقاليم، فقد اعتمد عليه ابن فضل العمري في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، ودون معلومات جغرافية هامة عن بحيرة فكتوريا التي تشكل موردا لنهر النيل ونقرأ ذلك في قوله "حدثني أقضى القضاة شرف الدين أبوالروح عيسى الزواوي عن الأمير أبي دبوس بن أبي دبوس ووالده آخر سلاطين بر العدوة من بني عبد المؤمن حدثه أنه وصل إلى هذه البحيرة في أيام هربه من بني عبد الحق ملوك بني مرين القائمين الآن"[٢٠]، وقوله أيضا "ومن عجائب إفريقية ما حدثني به القاضي أبوالروح أن بين توز قاعدة بلاد الجريد وبين بشرى من بلاد نفزاوة سبخة عظيمة أخذت في الجنوب إلى الصحراء المجهولة

علالة الاغتراب، تحقيق مختار العبادي، مراجعة، عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.، ج١، ص ٨٠.

[15] ابن يونس، هومحمد بن عبد الله بن يونس الصقلي التميمي، له جامع في الفقه اقتفى فيه أثر أبي زيد القيرواني في معظم تخريجاته، وهوكما قال القاضي عياض شرح كبير عن المدونة، انظر، محمد حسن شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ٢٠٠٠، ص ٤٣٥-٤٣٦؛ وهوغير الفقيه ابن يونس أحمد بن موسى الموصلي (ت ٦٢٢هـ /١٢٢٧م). انظر، الصفدي، المصدر السابق، مج٣، ص ٧٢٧.

[16] الصفدي، المصدر السابق، مج٣، ص ٧٢٨.

[17] ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٣، ص ١٢٥.

[18] ابن فرحون، المصدر السابق، ص ١٨٣.

[19] توجد منها نسخة في المكتبة السليمانية بإسطنبول؛ انظر عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص ١٧٢.

[20] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر١٣، تصدير فؤاد سيزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا إيكهارد نويبارو، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية، ١٩٨٢، ص ٦٨؛ علي أحمد، الدور الفكري، ص ١٩٥.

المسالك"[٢١]، كما وصف موكب السلطان الحفصي وعن بعض عاداته عند خروجه إلى صلاة العيدين، وكيفية ترتيب الجنود من حوله مع رؤساء القبائل والقضاة. [٢٢]

وقد سجل العلامة شرف الدين رأيه وفتواه في مؤلفات الصوفي محي الدين بن عربي (ت٦٣٨هـ/١٢٤١م) التي أثارت سجالا بين الفقهاء وبخاصة كتاب "الفصوص" وعبر على ذلك قوله " وأما ما تضمنه هذا التصنيف عن الهذيان والكفر والبهتان فهوكله تلبيس وظلال وتحريف وتبديل، فمن صدق بذلك أواعتقد صحته كان كافرا صادا عن سبيل الله مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ملحدا في آياته مبدلا لكلماته فإن ظهر ذلك وناظر عليه كان كافرا يستتاب فإن تاب وإلا قتل وإن أخفى ذلك وأسره كان زنديقا فيقتل متى ظهر عليه، ولا تقبل توبته إذا تاب لأن توبته لا تعرف فقد كان قبل أن يظهر عليه يقول بخلاف ما يبطن فعلم بالظهور عليه خبث باطنه، وهؤلاء قوم يسمون الباطنية لم يزالوا من قديم الزمان ظلالا في الأمة معروفين بالخروج عن الملة يقتلون من ظهر عليهم وينفون من الأرض، وعاداتهم التمصلح والتدين وادعاء التحقيق وهم أسوأ طريق، فالحذر كل الحذر منهم فإنهم أعداء الله وشر من اليهود والنصارى لأنهم قوم لا دين لهم يتبعونه، ولا رب يعبدونه وواجب على كل من ظهر أحد منهم أن ينهى أمره إلى ولاة المسلمين، يحكموا فيه حكم الله تعالى، ويجب على من ولي الأمر إذا سمع بهذا التصنيف البحث عنه وجميع نسخه حيث وجدها وإحراقها، وأدب من أتهم بهذا المذهب أوينسب إليه أوعرف به على قدر قوة التهمة عليه حتى يعرفه الناس ويحذروه".[٢٣]

قصارى القول فإن مصنفاته لاقت كل احترام وتقدير، وحظيت بعناية فائقة من قبل أهل العلم، وهي تعبر بحق عن مكانته العلمية، وتضلعه في ألوان متعددة من المعرفة، إذ لم يكن فقيها فحسب بل أديبا وشاعرا ومؤرخا، فأثرى بعلمه الواسع الحياة الفكرية بإسهامات

---

[21] حسن حسني عبد الوهاب، وصف إفريقية والمغرب والأندلس، مقتطف من مسالك الأمصار للعمري، نشر البدر تونس، د.ت.، ص ٢٨- ٢٩.

[22] نفسه، ص ١٠؛ القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص ١٤٤.

[23] البقاعي (برهان الدين)، مصرع التصوف أوتنبيه الغبي في تكفير ابن عربي وتحذير العباد من أهل العناد، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، ط١، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٣، ص ١٥٧- ١٥٨.

معتبرة في حقل التدريس والتأليف، واستحق بذلك أن يلقب بمالك الصغير على حد تعبير أحد الفقهاء. [٢٤]

واستمر إسهام أسرة شرف الدين الزواوي بتولي ابنه علي مشيخة الزاوية المالكية، وكان قد تلقى علومه الأولى على يد والده ثم على برهان الدين الصفاقسي والشيخ برهان الدين الرشيدي علوم عدة، وسمع من تقي الدين الدلاصي وابن القماح وابن حيان وغيرهم.[٢٥]

ودخل دمشق ولقي بها خيرة العلماء والفقهاء كالإمام المزني والعلامة البرزالي والحافظ الذهبي، وسمع بالقدس من الحجار وزينب بنت كمال المقديسية.[٢٦]

ولما استوى عوده وبلغ درجة كبيرة من النضج العلمي، تصدر للتدريس بالزاوية المالكية فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم، ثم غلب عليه التصوف وظهرت فضائله فمال إلى الزهد والتقشف، وحج غير مرة وجاور بالمدينة مدة ثماني سنوات، ومع ذلك استمر نفعه فجلس يعلم الناس في الروضة الشريفة وقد ازدحم على حلقات دروسه عدد من العلماء والصلحاء[٢٧]، لكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر أين واصل في أداء رسالته التربوية في تعليم النشء إلى أن توفي سنة ٧٦٩هـ/١٣٧٠م.[٢٨]

ومع أنه لم يجار أبيه في حقل التأليف إلا أن ولده شمس الدين الزواوي الذي شغل منصب ناظر لأوقاف المالكية بمصر كان خير خلفا لوالده، [٢٩] ولم يكن الفقيه سراج الدين بن القاضي شرف الدين الزواوي أقل شأنا من أخيه علي في مجال الدراسات الدينية، إذ يصفه

---

(24) القرافي، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تحقيق أحمد الشتيوي ، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦٧.

(25) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص ٥٥.

(26) هي زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بنت أحمد المقديسية المعروفة ببنت الكمال، ولدت سنة ٦٤٦هـ/١٢٥٠م، سمعت من محمد بن عبد الهادي وإبراهيم بن خليل، وخطيب مردا وأبي الفهم البلداني وغيرهم وكانت دينة خيرة، روت الكثير وتزاحم عليها الطلبة وقرؤوا عليها الكتب الكبار، توفيت عن عمر ناهز التسعين سنة ٧٤٠هـ/١٣٩٠م، انظر، ابن حجر، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٩- ٧٠.

(27) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٣، ص ٥٥.

(28) نفسه، ج٣، ص ٥٥؛ ولعل من بين الكرمات التي رويت عنه والدالة على صلاحه وتقواه ما رواه ابن حجر في درره أن الشيخ عبد السلام بن سعيد بن علوان المالكي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه وأخبره بأن يقول لإبن الزواوي يتكلم غدا في موضع درسه بالروضة الشريفة.

(29) نفسه، ج٣، ص ٥٥.

أحد المؤرخين بالفقيه المالكي رغم قصر حياته العلمية إذ توفي في ريعان شبابه سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٩م وعمره لم يتجاوز الثلاثين.[٣٠]

ونستنتج من حصاد ما سبق الجهود الرائدة التي قدمتها أسرة أحد الزواويين في مجال الدراسات الفقهية، نافسوا بها فقهاء الشافعية واسترجعوا للمذهب المالكي هيبته ومكانته في المجتمع المصري.

والملفت ونحن نتحدث في هذا الموضوع أن بعض العلماء الزواويين كما هوالشأن لبعض المغاربة والأندلسيين، تحولوا عن المذهب المالكي إلى الشافعي أوالحنفي بشكل خاص، وهذه الظاهرة تبدوا غريبة ومثيرة للتساؤل، وذلك من منطلق تمسك المغاربة بمذهب مالك.[٣١]

وقد غزا أحد الباحثين حالة العوز والفقر التي كان يمر بها هؤلاء وخاصة فئة العلماء لاسيما وأن الأوقاف العلمية من (مدارس وزوايا وخوانق) كانت تختص كل واحدة منها بمذهب معين يشترط فيها على كل واحد من هؤلاء أن يكون على دراية واسعة بمذهبه في الأصول والفروع معا، وبعملية حسابية واستنادا لما ذكرته المصادر التاريخية فإن الأوقاف المالكية لم يكن بمقدورها استيعاب كل الأطر الدينية للمذهب المالكي، الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى اختيار أحد الأمرين:

---

(30) الجزري (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر)، تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه مج٣، تح عبد السلام التدمري، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨١، ص ٩١٧؛ المقريزي، المقفى الكبير، مج ٥، ط١، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، ص ٥٤٣.

(31) أجمعت النصوص الفقهية والتاريخية على شدة تعصب المغاربة للمذهب المالكي ربما وصل عند بعضهم إلى حد رفض المذاهب الأخرى وعدم التعايش معها، وهوما أشار إليه المقديسي في تقاسيمه قوله، "وسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي... وكنت يوما أذاكر بعضهم في مسألة فذكرت قول الشافعي فقال، أسكت من هوالشافعي إنما كانا بحرين أبوحنيفة لأهل المشرق ومالك لأهل المغرب، أفنتركهما ونشتغل بالساقية، ورأيت أصحاب مالك يبغضون الشافعي قالوا، أخذ العلم عن مالك ثم خالفه، وما رأيت فريقين أحسن اتفاقا وأقل تعصبا منهم"، المقديسى، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد محزوم، دار إحياء التراث بيروت، ١٩٨٧، ص ١٩٥؛ الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، ج٢، أخرجه جماعة من الفقهاء، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ص ١٦٩.

- إما البقاء على المذهب الأصلي ويعني ذلك الاستمرار في معاناتهم، أوالتحول إلى أحد المذاهب الثلاث (الشافعي، الحنبلي، الحنفي) تماشيا مع الوضع، فكان الاختيار الأخير موفقا إلى أبعد الحدود وتمكن بعضهم من الوصول إلى أعلى المراتب وعلى مستوى خط واحد مع علماء البلد الأصليين، ومنه نستنتج أن حالة العوز المادي كانت دافعا قويا لتبرير التحول عن المذهب المالكي، وبعبارة أخرى فإن هؤلاء العلماء أجادوا "التكتيك والمناورة" وحققوا ما كانوا يطمحون إليه دون أن يتعرضوا للدين بضرر أونقصان[٣٢].

ومن القرائن الذي تزكي هذا التخريج أن الفقيه محمد بن إبراهيم بن يحي بن منصور بن يحي بن عيسى الزواوي (ت ٦٨٣ هـ/١٢٨٤م) تحول عن المذهب المالكي إلى الحنفي وشغل إماما للمدرسة اليازكوجية بمصر يدرس الفقه الحنفي، [٣٣] ومثله أيضا العلامة محمد بن حسن صارم بن سعيد بن سالم أبي عبد الله ويعرف بالقبائلي الذي تحول إلى الشافعية وكان مالكيا.[٣٤]

والملاحظ أن تحول هذين العالمين عن مذهبهما ربما كان تأسيا بالنحوي ابن معطي الزواوي (ت ٦٢٨ هـ/١٢٣١م) الذي سبقهما إلى المذهب الحنفي كما سيأتي ذلك في باب الدراسات اللغوية، ومع ذلك لم يؤثر هذا التحول في بقية الفقهاء الزواويين الذين بقوا أوفياء لمذهبهم الأصلي كما هوالشأن بالنسبة للعلامة الحسن بن عبد الله المليكشي الذي شغل معيدا بالمدرسة الناصرية، يقرأ الناس الفقه المالكي إلى أن توفي سنة ٧٧٨ هـ/١٣٨٠م.[٣٥]

ومثله أيضا تقي الدين الزواوي (ت ق ٨ هـ/١٤م) الذي نذر نفسه للتعليم ،فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم،[٣٦] وأسهم سليمان بن أحمد بن سليمان بن راشد السالمي الزواوي (ت ٨١٠ هـ/١٤١١م) بجهود رائدة في هذا الحقل الديني ُكان معدودا من كبار الفقهاء المالكية. [٣٧]

واستفاد طلبة القاهرة من التجربة العلمية ليحي بن موسى الزواوي التي حصلها في شتى فروع المعرفة بمجالسة العلماء أمثال الجمال الأسنوي والأكمل محمد بن محمود بن

---

[32] علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص ١٣٠.

[33] المقريزي، المصدر السابق، مج٥، ص ٦٢-٦٣.

[34] نفسه، مج ٥، ص ٥٤٣.

[35] ابن حجر العسقلاني، إنباء العمر بأنباء العمر، ج١، ص ٧٣.

[36] ابن حجر العسقلاني، إنباء العمر بأنباء العمر، ج٣، ص ٣٦٧.

[37] السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت. ، ج٣، ص ٢٦٠.

أحمد، فأجاز عدد كبير ممن أخذ عنه بشهادة ابن حجر العسقلاني الذي أكد أنه وقف على إجازة بخط يديه في حدود سنة ٧٧١هـ/١٣٣٧م.[٣٨]

وتساوى معه في الفضل العلامة يحي بن يحي الزواوي من أعلام القرن الثامن الهجري/الرابع ميلادي الذي ذاع صيته في الديار المصرية من خلال نشاطه التعليمي[٣٩]، وهونفس الدور الذي لعبه كل من مجد الدين الزواوي الذي فاق أقرانه من العلماء وبخاصة في علوم القرآن،[٤٠] والعلامة جمال الدين محمد بن مسعود بن صالح الزواوي الذي كان أحد شيوخ البلوي[٤١].

ولعل أبرز هؤلاء جميعا العلامة أبوالفضل المشذالي الذي أسهم بجهود رائدة على غرار ما قام به في تلمسان وقسنطينة وعنابة من مدن المغرب الأوسط، لما أظهره من نبوغ وتفوق حتى قيل أنه لم يكن مثله من المغاربة والأندلسيين في المشرق خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر ميلادي من حيث ثقافته الموسوعية. [٤٢]

فقد قضى معظم حياته متنقلا بين مختلف الحواضر المشرقية، كدمشق والحجاز وأقام بالقدس مدة يقرأ الناس الفقه والحديث والعربية، ثم استوطن مصر وجلس للتدريس بالجامع الأزهر فبهر العقول وأدهش الألباب،[٤٣] ويؤيد هذا ما أشار إليه الشهاب الأبدي في الرسالة التي بعث بها إلى والده جاء فيها: «إن الله خول سيدنا وملاذ أنفسنا أبا الفضل ولدكم الأسعد من الفتوح الإلهية والمنن الربانية مما امتحنه صالح دعائكم وحسن طويتكم واعتقادكم أن جعله الله بحر العلوم زاخرة، وعنصرا لفضائل فاخرة، ومحاسن متوالية متضافرة... أبكت ذوي العقول، وحج أصحاب المعقول والمنقول، فدانت له المملكة المصرية والأقطار الشامية والبلاد القاصية والدانية»، وظهر للناس على أنه مدرس قد يصعب على الطلبة الضعاف فهم

---

(38) ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٤، ص ٢٦٥.

(39) الذهبي، معجم الشيوخ، ج١، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٧، ص ٥٢٨.

(40) الوادي آشى (أبي جعفر أحمد بن علي)، الثبت، ط١، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت.، ص ٣٨٣.

(41) نفسه، ص ١٩٢.

(42) أحصى الإمام الشوكاني حفظه وإتقانه لاثنان وعشرون علما منا، الفقه، الحديث، القراءات، التفسير، الأصول، النحو، العربية، العروض والصرف، المنطق، المواقيت، الحساب، الفرائض، المقابلة، والهيئة والمرايا، والمناظرة والطب.

(43) الشوكاني، المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٧.

ما يقول حتى قالوا له يوما: تنزل لنا في العبارة فإننا لا نفهم جميع ما تقول، فرد عليهم: لا تنزلوني إليكم بل دعوني أرقيكم إلي. [٤٤]

وقد علق أحد العلماء ممن كان يحضر دروسه بالمنصورية والأزهر قوله: «ظهر لي أنني ما رأيت مثله ولا أرى هومثل نفسه فمن لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا رأي الناس بل ولا خرج إلى الوجود مثله»،[٤٥] وقد أكد ذلك الإمام السخاوي قوله: «سماع درس واحد من تقريره أكثر نفعا من سماع مائة من غيره وهوآية أبرزه الله في هذا العصر للعباد لا يشبه كلامه في جزالته إلا كلام العرب العرباء».[٤٦]

والجدير بالذكر أنه لم يكن الطلبة المبتدئين وحدهم ممن صعب عليهم فهمه بل حتى ممن كان يعد في مراتب العلماء وجد نفسه عاجزا على تحقيق ذلك، وهويشير إلى ذلك بقوله: «هذا الرجل لا ينتفع بكلامه ولا ينبغي أن يحضر درسه إلا حذاق العلماء»،[٤٧] وحسبنا أيضا أن برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٣م) ورغم تضلعه في علوم التفسير إلا أنه وجد نفسه مضطرا للأخذ عنه وقد أكد على ذلك بقوله:« كنت ممن أرشده إلى ما وضعت في التفسير من المناسبات بين الآيات والسور حيث أشار علي بضرورة أن أنظر الغرض الذي سيقت إليه السور وما يحتاج إلى الغرض من المقدمات ومراتبها في القرب والبعد من المطلوب»،[٤٨] وهي شهادة تقيم الدليل عن مكانته العلمية وإلمامه الواسع بعلوم عصره من جهة، وبروزه كمدرس بارع وأستاذ لا يجارى في طريقته التعليمية وأساليبه المبتكرة في ميدان التدريس، هذا إلى جانب عدد ممن تخرج على يده من الطلبة أمثال عالم الحجاز البرهان بن ظهيرة وابن قاضي عجلون الدمشقي والكمال بن أبي شريف المقديسي والشريف البيجوري المصري.[٤٩]

ولم يكن علم الدين بن سليمان الزواوي أقل شأنا من سميه أبوالفضل في مجال التعليم، فعلى الرغم من حياة اليتم الذي ذاق مرارتها منذ طفولته الأولى بعد وفاة والده قبل مولده بشهر إلا أن ذلك لم يمنعه من طلب العلم وتحصيله، فجلس أول الأمر لعلماء مصر ثم

---

(44) نفسه، ج٢، ص ١٢٧.

(45) نفسه، مج٢، ص ١٢٨.

(46) السخاوي، المصدر السابق، مج١٠، ص ٢٣١.

(47) الشوكاني، المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٨.

(48) نفسه، ج٢، ص١٢٨.

(49) علي أحمد، الدور الفكري، ص ٣٠٠.

زار بلاد الحجاز والشام، فأخذ الفقه والأصول عن العبـــادي والمنـــاوي، ودرس الفـــرائض والحساب والفقه والأصول على يد العلاء الحصني والسيف الحنفي، ولازم الشهاب الحجازي وأخذ عنه الكثير من علومه وأجازه عدد كبير من العلماء منهم الإمام الـــسخاوي، وبعـــد أن استكمل تحصيله العلمي عاد إلى مصر وانتصب للتدريس فانهال عليه طلبة العلم مـــن كـــل ناحية مشيدين بغزارة علمه ونبل أخلاقه، قال عنه السخاوي: «كان قوي الذكاء سريع الحركة طارح التكلف».[٥٠]

ونستنتج من حصاد ما سبق بأن فقهاء زواوة كان لهم نشاطا مميزا فـــي ازدهـــار الدراسات الفقهية، وبخاصة الفقه المالكي الذي تدعم وجوده أكثر في وسط المجتمع المصري، الذي كان غالبية أفراده إما أحناف أوشافعية،[٥١] ولعل الفضل في ذلك يعود لما بذله هـــؤلاء العلماء الذين أشادت المصادر بكفاءتهم العلمية والمهنية بعد أن نجحوا في تأطير لفيف مـــن طلبة العلم.

في علوم الحديث:

أما عن إسهاماتهم في علم الحديث، وإن أحجمت كتب التراجم والطبقات عن ذكـــر العديد من أسماء المحدثين الزواويين، إلا أنها حفظت لنا اسمين ممن صنفوا من كبار الحفاظ لما تميزوا به من نبوغ فكري وعمق تحصيلهم في هذا الشق من الدراسات الدينية، وإن كنا نسلم بأن معظم الفقهاء الذين سبق ذكرهم كانوا على درجة كبيرة من الحفظ للحديث النبوي.

وأولهم محمد بن علي بن إسماعيل الزواوي بدر الدين (ت ٧٧٥هـ/١٣٧٦م) الـــذي تلقى علومه أول الأمر ببجاية، ثم رحل إلى المشرق ودخل القاهرة فسمع من ابن الشحنة (ت ٧٦٢هـ/١٣٦٤م) وست الوزراء (ت ٧١٦هـ/١٣١٨م) [٥٢] صحيح البخاري ولما علا علمـــه

---

(50) الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٦٠.

(51) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٣٥٥- ٣٥٦؛ عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية، ج٢، أطروحة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ١٩٩٥، ص ٤٣٣.

(52) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٧؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر مـــن صـــدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، د.ت.، ص١٦٦؛ وتعتبر ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المنجا التنوخية الدمشقية، من أشهر المحدثات سمعت من أبي عبد الله عن الزبيدي مسند الشافعي وصحيح البخاري وحدثت بدمشق ومصر، وهي آخر من حدث بالمسند، توفيت سنة ٧١٦هـ/١٣١٨م، انظر، ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٧٨.

تصدر للتدريس بالجامع الأزهر يقرأ الناس الحديث وقد تخرج على يديه عدد كبير من طلبة القاهرة.[٥٣]

أما الثاني فهوأحمد بن صالح خلاصة شهاب الدين الـزواوي (ت ٨٥٥هـ/١٤٥٧م) فإلى جانب تضلعه في علم الحديث، كانت له مشاركة واسعة في الدراسات الفقهيـة فجلـس للتدريس بالجامع الأزهر وأجاز عددا من طلابه منهم الإمام السخاوي. [٥٤]

إسهامهم في الدراسات الأدبية واللغوية:

تؤكد المصادر التاريخية لاسيما - المشرقية منها- في الفترة موضوع البحـث أن مصر كانت تعج بكبار الأدباء واللغويين، لكن رغم كثرة أهل الاختصاص في هذا المجـال ممن ازدانت بهم مجالس العلم في مصر والقاهرة إلا أن ذلك لم يمنع من بروز أسماء مـن علماء زواوة، الذين شاركوا بدورهم في ازدهار الحياة الفكرية، إذ لم يقتصر نشاطهم العلمي على التدريس فحسب بل تعداها إلى حركة التأليف والتصنيف الأمر الذي جعل منهم فئة أكثر نفعا وإيجابية.

ولعل أبرز هؤلاء العلماء على الإطلاق أبي الحسين زين الدين أبوزكريا يحي بـن عبد المعطي بن عبد النور (ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م) أصله من آيت فراوسن إحدى فروع قبيلـة زواوة، أخذ العلم عن مشائخ بلده وتفقه بالمذهب المالكي على يد أبي موسى الجزولي،[٥٥] ثم انتقل إلى مصر فتشفع لكنه لم يلبث أن تحول عنه إلى مذهب الحنفية كما فعل غيـره مـن الأعلام،[٥٦] وسكن دمشق أين حظي طلبة العلم برعاية، خاصة من قبل الولاة والأمراء بما

---

(53) نفسه، ص٥٨؛ القاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد، تاريخ ابن القاضي شـهبة، مـج٣،ج٢ مـن المخطوط، تحقيق عدنان دروس، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤، ص ١١٢؛ محمد ابن أحمد كنعان، وفيات الأعيان والمشاهير (خلاصة تاريخ ابن كثير)، ط١، مؤسسة المعارف، بيـروت، ١٩٩٨، ص ٤٥٧.

(54) عادل نويهض، المرجع السابق، ص ١٧٠.

(55) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، مج٦، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٩٧؛ عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص ٨٨.

(56) تذكر المصادر التاريخية أن جملة من الأعلام تحولوا عن مذاهبهم الأصلية إلى مذاهب أخرى أمثال ابـن مالك وابن حيان ومحمد بن الدهان النحوي والخطيب البغدادي الذي تحول عن المذهب الحنبلي وصار شافعيا، ومثله ابن فارس صاحب "المجمل في اللغة" الذي انتقل إلى المالكية وكان شافعيا، والفقيه ابن دقيق العيد الذي تحول عن المالكية إلى الشافعية، انظر، عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص٨٨.

رصدوه من جوائز معتبرة لكل من يحفظ كتابا علميا،[٥٧] فأخذ عن أعلامها وسمع من الحافظ ابن عساكر وحصل معارف شتى من فقه وحديث وأدب ونحووشعر،[٥٨] ثم جلس لإقراء النحوفانتفع به خلق كثير وأطبقت شهرته الآفاق فلا يكاد يخلومجلس من مجالس العلم إلا وذكر فيها اسمه، لأجل ذلك ولاه الملك الأعظم (ت ٦٢٤هـ/١٢٠٣م) مصالح الجامع الأموي والمشيخة العلمية فيه، [٥٩] ثم أن الملك الكامل رغب إليه في الانتقال إلى القاهرة، وكان قد حضر إحدى جلساته العلمية فأعجب بنبوغه الفكري وتضلعه الفائق في علوم اللغة،[٦٠] فأجابه الشيخ لذلك وهناك تصدر لإملاء الأدب وتدريسه بالجامع العتيق،[٦١] فالتف حوله الطلبة واحتفلوا لدروسه وأقبل عليه الناس يعظمونه ويكبرون علمه وأدبه فأخذوا عنه علما كثيرا وأدبا جما، ولعل أبرزهم كان الحافظ المحقق زكي الدين أبومحمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) صاحب كتاب "الترغيب والترهيب في الحديث النبوي"،[٦٢] وقد أجمعت المصادر التاريخية أن شهرة ابن معطي لا تعود فقط لقدرته على إدارة مجالس العلم، بل إلى مصنفاته المبدعة والمبتكرة في مجال النحووعلوم اللغة منها: الدرة الألفية التي كانت فاتحة مؤلفاته العلمية في هذا المجال، وجاءت في ألف وواحد وعشرين بيتا وبدايتها: (السريع)

---

[57] ابن كثير، البداية والنهاية، مج١٣، ص ١٢١؛ ومن الأمثلة على ذلك أن الملك الأعظم عيسى الأيوبي رصد ثلاثون دينارا لمن يحفظ كتاب الزمخشري؛ انظر، ابن كثير، المصدر السابق، ص ١٢١.

[58] السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، مج١، ط١، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ٤٣٧؛ عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين، ١٤/٣هـ، د م ج ١٩٩٥، ص ٢٤٩.

[59] عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص ٨٨.

[60] ابن معطي، الدرر الألفية، تقديم وتحقيق، إمام حسن الجبوري، ط١، مطبعة الأمانة، مقدمة المحقق، ص١.

[61] اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط٢، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٠، ج٤، ص ٤٦؛ عادل نويهض، المرجع السابق، ص ١٦٧؛ الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الفنون المطبعية، ١٩٩١، ص ٥٩٨.

[62] ابن قطلوبغا السوداني (أبوالفدا زين الدين قاسم)، تاج التراجم، ط١، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق، ١٩٩٢، ص٣٢٢- ٣٢٣.

يقـــول راجـــي ربـــه الغفـــور يحي بن معـط بـن عبـد النـور
الحمـــد لله الـــذي هـــدانا بأحمـــد دينـــا لـــه ارتـــضانا
فلـم يـزل ينمـى بـه الإسـلام حتـى اسـتبانت للهـدى أعـلام
مؤيـــدا منـــه بخيـــر الكتـــب وحيـــا إليـــه بلـــسان عربـــي
لكونـــه أشـــرف مـــا بـــه نطـــق كما الرسول خير مخلـوق خُلِـقَ[٦٣]

وقال في ختامها: (المتقارب)

تحويـــه أشـــعارهم المرويـــة هـــذا إتمـــام الـــدرة الألفيـــة
نظمها يحي بن معطـي المغـــ ربي تـذكرة وجيـزة للغـرب[٦٤]

وقد اتسم هذا النظم بشكل فريد من نوعه لم يسبقه إليه أحد من شعراء العرب، بحيث نظمت من بحرين أحدهما الرجز والثاني السريع:

الأول: مستفعلن متفعلن مستفعلن

الثاني: مستفعلن مستفعلن فعولات[٦٥]

وتقع في حوالي تسعين بابا.[٦٦]

ولعل أهمية هذا المصنف ليس بكونها من المؤلفات المبتكرة في الأدب العربي فحسب، بل لما كان لها من عظيم الأثر في ازدهار الدراسات اللغوية وظهور المصنفات

---

(63) ابن معطي، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص ١.

(64) نفسه، ص ٢.

(65) نفسه، ص ٣.

(66) ولعل من أهم أبوابها ما يلي:

تعريف الكلام والكلم. - علامات الاسم والفعل والحرف. - اشتقاق الاسم والفعل بين البصريين والكوفيين. - الإعراب والبناء. - الأفعال المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل. – الأسماء المعربة. - إعراب الأسماء الستة. - الممنوع من الصرف. - الوقف. - التثنية. - أحرف القسم. - الممنوع من الصرف. - الأفعال المتعدية واللازمة. - إلحاق تاء التأنيث والأفعال. - الأفعال المتعدية بحرف الجر. - الأفعال المتعدية إلى مفعول واحد. - التجدير. - الأفعال المتعدية إلى مفعول واحد بنفسها وتتعدى إلى مفعول ثاني بحرف الجر. - المتعدي إلى مفعولين بنفسه. - أزمنة الأفعال. - جوازم المضارع. - نواصب المضارع. - علامات إعراب المضارع. - بناء الفعل المضارع. - الأفعال المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل. - الإلغاء والتعليق؛ انظر، ابن معطي، المصدر السابق، ص ٣.

النحوية الرائدة، إذ لا يستبعد أن يكون ابن مالك قد استوحى منظومته النحوية من ألفية ابن معطي، لأنها جاءت على النحوالذي اتبعه ابن معطي من حيث المنهج واستخدام القافية والألفاظ، ومما يزكي هذا التخريج أن ابن مالك نفسه اعترف بفضلها بقوله:«فائقة ألفية ابن معطي»،[٦٧] وحسبنا دليلا ما قال به بعض ممن نظر في الألفيتين معا وقارن بينهما وأكد أنه من باب الإنصاف القول: «أن نظم ابن مالك أجمع وأوعب ونظم ابن معطي أسلس وأعذب».[٦٨]

هذا إلى جانب مظاهر القبول والاستحسان الذي لقيته من لدن أهل العلم، فقد قرؤوها وأقرءوها ونظموا في مدحها، من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي في قوله: (الرجز)

يا طالب للنحوذا اجتهاد سموا به في الورى وتحيا
إذا شئت نيل المراد فأقصد أرجوزة الإمام يحي[٦٩]

وقد ازدادت أهميتها لكثرة المنتفعين بها من العلماء والنحاة أمثال شعبان بن محمد بن داوود بن علي المصري (ت ٨٢٨هـ/١٤٣٠م)، وعبد العزيز اللمطي المكناسي الميموني (ت٨٨٠هـ/١٤٨٢م) والإمام السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥١٢م)، حيث جمع ألفية ابن مالك وابن معطي في ألفيته.[٧٠]

وقد لا نجافي الحقيقة إذا قلنا بأن ألفية ابن معطي صارت في نظر العديد من اللغويين النموذج الأمثل التي يستأنس بها في الدراسات النحوية لما احتوته من معارف علمية، ساعدت في تطور هذا الفن، وليس غريبا أن يكون إقبال الكثيرين من الطلبة على شرحها انطلاقا من هذا الواقع،[٧١] باعتبارها من المؤلفات المبتكرة في هذا الميدان،[٧٢] بالإضافة إلى

---

[67] محمد بن أحمد كنعان، وفيات الأعيان والمشاهير (خلاصة تاريخ ابن كثير)، ط١، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٩٨، ص ٤٠٣.

[68] عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص ٨٨.

[69] ابن معطي، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص ٤.

[70] نفسه، مقدمة المحقق، ص ٤.

[71] علي أحمد، الدور الفكري، ص ٢٠٤.

[72] أما عن الشروح التي كتبت حول الدرة الألفية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر شرح لأحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور بن علي بن الخبار الأربلي الموصلي النحوي الضرير (ت

جملة من المؤلفات التي أغنى بها المكتبة العربية بعضها لا يزال مخطوطا منها: كتاب الفصول، وكتاب العقود، والقوانين في النحو، وحواشي على أصول ابن سراج في النحو، وشرح على كتاب الجمل للزجاجي في النحو، وشرح لأبيات سبويه نظما وله نظم على كتاب الجمهرة لابن دريد في اللغة وآخر في العروض، وله قصيدة في القراءات السبع، وديوان خطب، وكتاب المثلث، وأرجوزة في النحوبلغت عشرة آلاف بيت.[٧٣]

ومن مقتطفات شعره قصيدة طويلة مدح فيها الملك الأمجد صاحب مدينة بعلبك منها قوله: (الكامل)

ذهب الشباب ورونق العمر الشهي ... وأتى المشيب ورونق النور البهي
وجلا به ليل الذؤابة فجره ... وأتى بناه من نهاه مموه
وأطار نسر الشيب غربان الصبا ... فنعين في إثر الشباب المنتهى
ووهبت قوى الآمال منه وما وهت ... همم أبين على الحوادث أن تهي
ما أنس لا أسى اللوي وتنعمي ... فيه بجرده الحسان الأوجه[٧٤]

٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، وشرح لعمر بن مظفر محمد زين الدين الوردي الحلبي الشافعي (ت ٦٤٩هـ/١٢٥٠م) سماه "ضوء الدرة".

-وآخر لعز الدين عبد العزيز بن جمعة بن زيد القواس (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٨م)، وقدم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سمحان، جمال الدين أبوبكر الوائلي البكري الأندلسي الشريشي المالكي (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٧م) سماه "التعليقات الوفية بشرح الدرة الألفية".

- كذلك شرح لعبد المطلب بن المرتضى الحسين الشريف الجزري (ت ٧٣٥هـ/١٣٣٧م) .

- آخر لأحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الألبيري ثم الغرناطي أبوجعفر الأندلسي (ت ٧٧٩هـ/١٣٨١م) .

- ومثله لمحمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الهواري المالكي النحوي (ت ٧٨٠هـ/١٣٨٢م) في ثمان مجلدات.

- كما قدم محمد بن محمود بن أحمد البابرتي الحنفي شرح مفيد على الألفية.

- وآخر لتقي الدين ابن إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن ثابت الطائي البغدادي، ويلاحظ أن كل هذه الشروح المقدمة على الألفية تعكس بوضوح أهميتها في مجال الدراسات اللغوية؛ انظر حول هذا الموضوع، ابن معطي، المصدر السابق، ص٣٢٣.

[73] ابن معطي، المصدر السابق، ص ٦؛ ابن قطلوبغا، المصدر السابق، ص ٣٢٣؛ عادل نويهض، المرجع السابق، ص ١٦٧؛ عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص ٨٩.

[74] الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد معروف، دار الكتب العلمية، بيروت، مج١٣، ص ٨٧٢- ٨٧٣.

ومجمل القول أن ابن معطي الزواوي كان له إسهام كبير في ازدهـــار الدراســـات النحوية واللغوية، سواء من خلال نشاطه التعليمي أومصنفاته الأدبية التي لاقت رواجا كبيرا في مختلف الحواضر المشرقية.

إسهاماتهم في مجال التصوف:

قدر لمصر حاضرة الدولة الأيوبية والمملوكية، أن تحتضن أعدادا كبيرة من صوفية المغرب في ظل التسابق المحموم بين رجال الدين والسياسة فـــي وقـــف الـــربط والزوايـــا والخانقاهات على هؤلاء الزهاد.

والواقع أن تيار التصوف بدأ يشق طريقه نحوالانتشار والازدهار على يد صـــلاح الدين الأيوبي الذي كان هونفسه صوفيا،[٧٥] إذ بادر أول الأمر تهيئة عمائر الزهاد المتصوفة وحول سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م دار سعيد السعداء[٧٦] بالقاهرة لتكون مركـــزا لتجميـــع الطـــرق الصوفية الواردة من المشرق والمغرب[٧٧] ورتب لهم كل يوم طعاما ولحما وخبزا وكانـــت أول خانقاه عملت بالديار المصرية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ. [٧٨]

وفيما يبدوأن وصول عدد من أقطاب التصوف إلى مصر في عهد المماليك أســـهم بدوره في إذكاء النزعة القديمة في روح الحضارة المصرية باعتبارها فرعا للنزعة العميقـــة التي تقود إلى التصوف والتدين، وظهرت على إثرهـــا طـــرق محليـــة منهـــا البدويـــة[٧٩]

---

[75] منى بدر محمد بهجت، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبيـــة والمملوكية، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٢٣.

[76] خانقاه سعيد السعداء كانت في الأصل دار لقنبر وقيل عنبرعتيق الخليفة المستنصر الفاطمي، ولما آل الحكم لصلاح الدين أوقفها على الصلحاء والزهاد ممن دخلوا مصر من المشرق والمغرب؛ انظر، السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مج٢، ص ٢٢٦.

[77] ومن أبرز الطرق الصوفية المشرقية الوافدة إلى مصر، الطريقة الرفاعية وتنسب إلى مؤسسها الأول أحمد بن أبي الحسن بن أبي العباس المعروف بابن الرفاعي (ت ٥٨٧هـ/١١٩١م) والطريقة القادرية نسبة لعبـــد القادر الجيلالي (ت ٥٦١هـ/١١٦٥م)، بالإضافة إلى السهر وردية التي تنسب إلى النجيب الـــسهروردي (ت ٥٦٤هـ/١١٦٧م)، أما عن الطرق الوافدة من المغرب أهمها الشاذلية التي حظيت بقبول شعبي كبير مع كثرة المريدين والأتباع؛ انظر، بهار عمار، المرجع السابق، ص ٨٦ وما بعدها.

[78] السيوطي، المصدر السابق، ص ٢٢٦.

[79] الطريقة الأحمدية أوالبدوية تنسب إلى أحمد بن علـــي بـــن إبـــراهيم الحـــسيني الـــشهير بالبـــدوي (ت ٦٧٥هـ/١٢٧٦م) الذي عاش في مدينة طنطا بدلتا مصر، فانتسب إلى طريقته عدد من طلبة العلم ومـــن =

والدسوقية[٨٠] ناهيك عن بعض الأسماء التي أثرت في اتجاه الحركة الصوفية كابن فارض (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) وأبوالقاسم القباري (ت ٦٦٢هـ/١٢٦٤م) وعبد الرحيم القنائي (ت ٥٩٢هـ/١١٩٥م) وأبي الحسن الصباغ (ت ٦١٣هـ/١٢١٦م).

وبناء على ما تقدم يمكن أن نجمل الأسباب التي ساعدت على انتشار التصوف بمصر إلى جانب ما ذكرناه فيما يلي:

أولا: التهميش والإقصاء للعنصر العربي من إدارة الجيش.

ثانيا: مظاهر التفسخ الأخلاقي والتساهل من لدن بعض العلماء والفقهاء في مجال الفتيا لصالح رجالات الدولة وأصحاب النفوذ، وهوما عبر عنه تاج الدين السبكي قوله: «فمنهم من يسهل أمر الشرع ويتنامى إلى أن يفتي ببعض ما لا يعتقده من مذاهب لبعض الأمراء ما لا يرخص فيه لعموم الخلق».[٨١]

ثالثا: الحروب المتكررة مع الفرنجة.

رابعا: رواج بيوت المزارات والخانات واستشراء ظاهرة الفساد وانتشار الحشيشة.

خامسا: توالي الكوارث الطبيعية من جفاف وأوبئة والتي مست شريحة عريضة من المجتمع وأفرزت واقعا اقتصاديا، ساعد كثيرا في رواج الفكر الصوفي، إذ التمس عند رجالاته عزاء التخفيف من وطأة الضغوط المعيشية والتحولات السياسية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع المصري. [٨٢]

ومهما تعدد الطرق والأسباب التي ساعدت في تغذية الحركة الصوفية بمصر إلا أنها سارت على النهج السني الذي انتشر على يد المتكلم الأشعري أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ/١١٠٥م)، فقد رفضوا الفلسفة طريقا لليقين، وآثروا عليها التصوف الذي يقوم على

رجال السياسة منهم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس؛ انظر منى محمد بدر بهجت، المرجع السابق، ص١٢٦؛ بهار عمار، المرجع السابق، ص ٨٥.

(80) أما الدسوقية فأنشأها الشيخ إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) وهومن دسوق بالوجه البحري بمصر، وتتفق هذه الطريقة بنظرياتها ومبادئها مع الطريقة الأحمدية البدوية، انظر، بهار عمار، المرجع السابق، ص ٨٦.

(81) السبكي (عبد الوهاب بن علي)، معيد النعم ومبيد النقم، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٨٠.

(82) منى محمد بدر، المرجع السابق، ص ١٢٣، هـ١.

عقيدة أهل السنة والجماعة،[٨٣] وهونفس التقليد الذي كان عليه صوفية زواوة الذين دخلوا مصر، ويأتي في مقدمة هؤلاء محمد بن يحي بن فائد أبي عبد الله الزواوي (ت ٦٣١ هـ/١٢٣١م) وكان من الصلحاء المشهورين الذين انقطعوا لتدريس العلم، وانتفع به عدد ممن كانوا يترددون على مجالسه منهم تقي الدين المنذري، ولما تقدم به السن آثر الخلوة واعتزل الناس وسكن القرافة [٨٤] إلى أن توفي بها.[٨٥]

ومن الزواويين أيضا علي بن عيسى بن مسعود الزواوي (ت ٧٦٩هـ/١٣٧٠م) الذي كان قد تلقى علومه أول الأمر عن أعلام بجاية، ثم رحل إلى مصر طلبا للاستزادة فجلس لخيرة علمائها ثم انساق في تيار التصوف، فكان من جلة العلماء زهدا وورعا مجاب الدعوة كثير الكرامات. [٨٦]

وأسهم سَمِيُهُ الصوفي عيسى الزواوي (ت ٧٧٨هـ/١٣٧٨م) نزيل خانقاه سعيد السعداء في تعليم المبتدئين الفرائض والحساب وأوقف كل ما كان يملكه من كتب على طلبة العلم.[٨٧]

واقتفى الشيخ الصالح أحمد الزواوي أثر أقرانه في تعليم النشء، قال فيه المناوي في طبقاته "كان عابدا زاهدا، جزل الألفاظ، لطيف المعاني، يفعل بقوله في النفوس ما لا تفعله المثالث والمثاني"،[٨٨] ولم تتوقف همته العلمية عن حلقات الذكر والدرس، بل نذر نفسه للإصلاح الاجتماعي لما كان يتمتع به من مكانة وتقدير بين أفراد المجتمع، وحسبنا دليلا على ذلك أنه أوقف فتيل الحرب التي كادت أن تقع بين أحد أمراء المماليك وحاكم دمنهور. [٨٩]

---

[83] منى محمد بدر، المرجع السابق، ص ١٢٨.

[84] القرافة، موضعان،الكبرى بظاهر الفسطاط، والصغرى بظاهر القاهرة، منسوبتان لبني قرافة وهم فخذ من المعافر بن يعفر أول من نزل بها، انظر الوادي آشي، الثبت، ط١، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت.، ص ١٢٤، هـ٢.

[85] الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج١٤، ص ١٥٨.

[86] ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص ٥٥.

[87] السخاوي، المصدر السابق، ج٦، ص ١٥٩.

[88] عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، مج٤، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.، ص ١٠٧.

[89] نفسه، ج٨، ص ١٠٧.

وأسهم خليفة بن عبد الرحمن الزواوي (من أعلام القرن ٩هـ/١٥م) في ازدهار الحركة العلمية من خلال تعدد مجالس الوعظ والذكر التي كان يعقدها لطلبة العلم بعدد من الزوايا والخوانق الصوفية،[٩٠] وهونفس الدور الذي اضطلع به حمزة بن عبد الرحمن بن حسن الزواوي (ت ٩٠٢هـ/١٥٠٢م) الذي رحل إلى الحجاز حاجا، ثم مال إلى التصوف وجاور الحرم المكي مدة، ثم نزل مصر وسكن بخانقاه الشيخونية يقرأ بالمدرسة القمحية العربية والتصوف.[٩١]

والجدير بالذكر في هذا الباب أن دور صوفية زواوة تجلى أكثر فيما بذلوه من جهود ليس فقط في ازدهار الحركة الصوفية، وإنما في نشر تعاليم ومبادئ الطريقة الشاذلية بالديار المصرية، ونلمس ذلك في الدور الذي قام به شرف الدين قاسم بن عمر الزواوي وسَمِيُهُ محمد من خلال خدمتهما لضريح تاج الدين بن عطا الله الأسكندري الشاذلي، فعملا على استقطاب عدد كبير من الزوار المريدين، [٩٢] وآزروا في ذلك العمل الذي قام به أبو العباس الزواوي مع أهل أشموم بالترويج لمبادئ وأفكار الطريقة.[٩٣]

ونستنتج من خلال هذا العرض أن معظم الشيوخ الصوفية من الزواويين كانوا أكثر نفعا لما قدموه في مجال الحركة العلمية، وإن كانت إسهاماتهم على أشكال وطرق مختلفة عكس ما ذهب إليه أحد الباحثين الذي وصفهم بالسلبية والخمول، وأنهم شكلوا عبئا على الدولة وتأثيرهم الضار على أفراد المجتمع من خلال تقديس الناس لأصحاب هذه الطرق. [٩٤]

---

(90) السخاوي، المصدر السابق، ج٣، ص٤٦؛ عادل نويهض، المرجع السابق، ص ٣٥.

(91) التنبكتي، نيل الابتهاج وتطريز الديباج، ذيل الديباج المذهب لابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.، ص١١٠.

(92) تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد الأسكندري (ت ٧٠٩هـ/١٣١٠م) كان في بدايته لا يقيم وزنا للصوفية، بل كان ينكر عليهم جميع تعاليمهم وممارساتهم، لكنه انخرط في الشاذلية بعد أن أخذ أفكار وتعاليم الطريقة من الصوفي المغربي المرسي أبو العباس فألف كتابا سماه "لطائف المنن في مناقب أبي العباس وشيخه أبي الحسن الشاذلي" انظر، علي أحمد، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة، ص ٣٤٦- ٣٤٧.

(93) ابن عطا الله الأسكندري، لطائف المنن، ط١، قدمه وعلق عليه، خالد عبد الرحمن العك، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٢، ص١٣٤؛ وحول دور المغاربة في نشر الطريقة الشاذلية بمصر والمشرق عموما انظر، عبد المغيث مصطفى نصير المغربي، تاريخ الطريقة الشاذلية وتطورها، ط١، دار إقرأ، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٥١ وما بعدها.

(94) علي أحمد، المرجع السابق، ص ٣٥٥؛ كشفت المصادر التاريخية أن الأولياء قاموا بدور اجتماعي لا يمكن إنكاره، فقد كان عوام الناس يلجئون إليهم كلما حاق بهم مكروه، ذلك أن المناخ الثقافي الذي طبع ذهنيات

ومجمل القول فإن المتتبع لما جاء في هذا الفصل يدرك بوضوح مدى إسهامات هذه الفئة من علماء زواوة في ميدان الثقافة والفكر بالديار المصرية كل حسب تخصصه، وهي صورة تعكس بحق التعاون الجاد في ظل الرعاية التامة التي أحاطها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك برجالات العلم والفكر الوافدين إليهم من مختلف حواضر العالم الإسلامي، وقد شارك الزاوويين غيرهم من العلماء المغاربة والأندلسيين في تنشيط حلقات الدرس والتأليف، وقد بلغ اهتمامهم بالحركة الفكرية إلى أعلى درجات الحرص، يؤيد هذا ما ذكره أحد العلماء أن هناك قبورا بمدينة القاهرة في محلة القرافة كانت تسمى ب"قبور المغاربة اللواحين" وقد أخذوا هذه التسمية من خلال تقديمهم الألواح التي كانوا يصنعونها بأيديهم للطلاب في أماكن تعليمهم ودراستهم دون مقابل تشجيعا منهم للثقافة والعلم. (٩٥)

ب- إسهامهم في الأندلس:

قبل أن نستعرض إسهامات علماء زواوة ونشاطهم العلمي في الأندلس، يجب أن نشير في بادئ الأمر أن كل المعطيات السياسية والاقتصادية التي كان يعيشها هذا الركن

العامة سمح بتكريس سلطة المتصوفة بل وتقديس رجالاتها والإيمان بالخوارق التي يأتون بها دون تفكير، ويستفاد من مختلف المصادر أن شريحة كبيرة من المجتمع وجدت في الخطاب الكرامي ما يناسب أوضاعها ويتناغم مع آمالها وتطلعاتها المستقبلية، فهوإفراز لواقعها الاجتماعي ويعكس ثقل ما عانته من آلام ومشاق على مختلف الأصعدة السياسة، والاقتصادية، والاجتماعية، لأن الفرد مهما كان موقعه الاجتماعي تتعاقب عليه حالات يشعر فيها بالخوف من البشر (سلطة سياسية أومن الطبيعة من فقر، مرض، أوكوارث من جفاف، ومجاعات) ولعل تفسير هذه الظاهرة مرده إلى تراجع الحركة العلمية وسيادة الجهل وتقعد الفكر في محاربة مثل هذه الظواهر الاجتماعية، وقد لاحظ البلاطنسي كشاهد على ذلك العصر أن عددا من المشعوذين ممن انتسب إلى تيار التصوف على كثرة أصنافهم من أشد الناس تكالبا على الحرام، وقد اعتادوا اصطياد أموال الناس بالمصادرة الظاهرة والباطنة، ويلحون على ذلك إما بلسان الحال أوالمقال، فأكثر ما يعطى لهم إما حياء أوخوف الذم والملام، ومنهم من يطوف على البلاد والقرى يروجون لطريقتهم باستكثار الأتباع والمريدين مع التوسل بذلك إلى تحصيل الدنيا وتناول الطيبات من المأكل، وأكثرهم يغلب عليه الحماقة والجهل، حول هذا الموضوع انظر، البلاطنسي، تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال، تحقيق، فتح الله محمد غازي الصباغ، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ١٩٨٩، ص ٢٨١؛ القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين - المجتمع - الذهنيات - الأولياء ، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٥٥- ١٥٦؛ أحمد المحمودي، عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي، طبع منشورات عكاظ، الرباط، ٢٠٠١، ص ١٢٩.

(95) ابن الزيات (شمس الدين أبوعبد الله محمد بن ناصر الدين الأنصاري)، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، مكتبة المثني، بغداد، د.ت.، ص ٤٣؛ علي أحمد، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة، ص ٢٥٣.

الغربي من العالم الإسلامي، في الفترة موضوع البحث لم تكن تشجّع طلبة العلم أوتستهوي الراغبين في الوظيفة، بل على العكس تماما ذلك أن المصادر التاريخية تتحدث عن هجرة عكسية من الأندلس باتجاه مختلف الحواضر المغربية والمشرقية[٩٦]، لاسيما وأنها تزامنت مع خصوصية المرحلة التي كانت تمر بها شبه الجزيرة بعد سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٠م، إذ لم يعد المناخ السياسي والفكري يساعد على الاستقرار، وحسبنا أن موقف الشاعر ابن رشيق (ت٤٥٦هـ/١٠٥٦م) قد عكس حالة من اليأس والتذمر نتيجة لما آل إليه الوضع عصرئذٍ وعبر على ذلك بقوله: (الكامل)

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاضا صولة الأسد[٩٧]

لا جدال أن الصرح السياسي الذي بناه بنوأمية (١٣٨- ٤٢٢هـ/٧٨٦- ١٠٣٠م) قد أصيب بنكسة قاصمة بظهور دول الطوائف، وأدى بشكل سلبي ومأساوي إلى شيوع الفتن والاضطرابات وانتشار الفساد الذي كان مؤشرا قويا عجل بانهيار الحضارة والعمران حسب تفسير ابن خلدون.[٩٨]

---

[96] شكلت الحواضر المغربية وبخاصة منها المدن الساحلية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين الثالث عشر والرابع عشر ميلاديين ملاذا آمنا للمهاجرين الأندلسيين الذين فروا أمام الاضطهاد المسيحي، وقد دلت نوازل الفترة موضوع الدراسة حجم المعاناة التي كان يعيشها هؤلاء – من مظاهر الإذلال- التنصير وعمليات الجباية ومصادرة الممتلكات بالقدر الذي صعب معه التكيف مع المتغيرات الجديدة، لاسيما وأن معظم السكان قد ألفوا حياة البذخ والترف، وفي ظل توافر الأمن والاستقرار، حول هذا الموضوع انظر، الونشريسي، أنس المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ومن لم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، ١٩٩٦، ص ٢٦ وما بعدها؛ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ط٦، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٢ وما بعدها.

[97] المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٣٤.

[98] قدم ابن خلدون من عمق خبرته التاريخية وعقليته الموسوعية تحليلا – استشرافيا- في أبعاد الأزمة الأخلاقية ودورها في سقوط الدول وانهيار الحضارات بقوله من مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها وكثرة الترف، فيقع التفنن في الشهوات مما يؤثر سلبا في نموالمجتمع وتطوره، وفيما = يبدو أن المناخ الثقافي الذي طبع الحياة الاجتماعية في الأندلس قد عكس مثل هذه المظاهر التي شجعت عدوهم التقليدي - أي نصارى الشمال- على غزوهم ومن ثم كان الجلاء باتجاه العدوة المغربية؛ انظر المقدمة، ص

وتقوم شهادة ابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ/١١٤٥م) دليلا إضافيا عن حالة التردي الاقتصادي الذي كانت تعاني منه بعض المدن الأندلسية جراء عمليات النهب والاستغلال، فجميع ما كان يمتلكه المسلمون من الثروات والغلات والاعتمالات، وما يكتنزونه من المؤن والذخائر صادرتها جيوش النصارى المتغلبة على تلك البلاد[٩٩]، هذا دون احتساب الأثر الديموغرافي الذي تخلفه مثل هذه الاعتداءات.

ولعل ما زاد من تأزم الوضع الاقتصادي – التناحر الدامي – بين ملوكها، الذي أغرق البلاد في آتون حرب لم تجلب لصانعيها إلا الدمار كما عبر عن ذلك أحد الباحثين،[١٠٠]مما أضعف كيانها وقدرتها في مواجهة حركة المد المسيحي، لذا لم يتردد أحد المؤرخين في تشبيه أمرائها بالضرائر المترفات أوبالعشائر المتغايرات لما كانوا عليه من التحاسد والتنافس والغيرة،[١٠١] حتى تغلب بعضهم على بعض وضعف أمرهم وأعطوا الإتاوة إلى ملوك الفرنجة.[١٠٢]

ولم تفلح جهود يوسف بن تاشفين (٤٥٣- ٣٠٠هـ/١٠٦١- ١١٠٧م) الذي عبر بقواته إلى شبه الجزيرة بعد الانتصار الذي حققه في معركة الزلاقة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) من إعادة اللحمة بين أمرائها [١٠٣] لعمق الخلافات السياسية بين دولها، وللغاية نفسها تطلع خلفاء الدولة الموحدية لإنجاح هذا المشروع، غير أن طموحهم هذا وإن نجح لبعض الوقت إلا أنه لاقى نفس المصير بسبب الظروف التي أحاطت بالدولة - فيما بعد- وأجهضت فكرة تحقيق

٢٩٤؛ إحسان عباس، المرجع السابق، ص ١٣٠؛ علي الجارم، قصة العرب في أسبانيا، ط٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، د.ت.، ص ١٦٣ وما بعدها.

[99] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب، ليبيا ، تونس ، مج١، ق٢، ص ٢٤٩.

[100] أحمد رائف، وتذكروا من الأندلس الإبادة، د. م. ج، الجزائر، ١٩٩١، ص ٤٢ وما بعدها.

[101] القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث المغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، ط١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٢، ص ١١٨.

[102] القلقشندي، صبح الأعشى، مج٥، ص ٢٤٧- ٢٤٨.

[103] لم يكن سلاطين الدولة المرابطية وحدهم من سعى إلى رأب الصدع الحاصل بين ملوك الطوائف فقد سبقهم إلى ذلك عدد من العلماء الأندلسيين منهم أبوالوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ/١٠٨١م) يؤيد هذا ما ذكره ابن بسام بقوله، "ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة يدعوهم إلى الوحدة ضد أعدائهم النصارى، لكنه لم يجد أسماعا واعية بل نفخ في عظام ناخرة"؛ انظر، الذخيرة، مج١، ق٢، ص ٩٥.

الوحدة بين العُدْوتين[١٠٤]، فكانت موقعة الأراك سنة (٥٩٠هـ/١١٩٠م) [١٠٥] آخر معركة ينتصر فيها الموحدون على النصارى الأسبان إذ توالت عليهم الهزائم استنزفت مواردهم الاقتصادية وإمكاناتهم العسكرية، كانت آخرها معركة العقاب[١٠٦] سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م Las navas de tolosa التي شكلت بدورها محطة مفصلية بين عهدي القوة والضعف،[١٠٧] وكشفت النقاب عن عمق الوهن السياسي الذي أصاب ملوكها الذين عجزوا في التصدي "لحروب الاستيراد" "Reconquista" لأسبانيا الإسلامية، إذ بدأ سقوط دول الطوائف تباعا منذ أوائل القرن ٧هـ/١٣م منها بلطليوس (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) ميورقة (٦٢٧هـ/١٢٣٠م) قرطبة (٦٣٣هـ/١٢٣٦م) شاطبة (٦٣٥هـ/١٢٣٨م) مرسينة (٦٤٠هـ/١٢٤٣م) قرطاجة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) أشبيلية (٦٤٦هـ/١٢٤٨م). [١٠٨]

ومع ذلك لا يجب أن يفهم من أن كل المدن الأندلسية قد خضعت دفعة واحدة لحملات النصارى الأسبان، بل أن منها - وإن قل عددها- كان لها من الإمكانات العسكرية والمادية ما عطلت به مشروع الاستلاب المسيحي، كمدينة المنكب، المرية، غرناطة وما جاورها من القرى.

---

[104] حول مختلف الأزمات التي عانت منها الدولة الموحدية يراجع محمد المغراوي، الموحدون وأزمات المجتمع ، ط١، مؤسسة جذور للنشر، الرباط ، المملكة المغربية، ٢٠٠٦، ص١٧ وما بعدها.

[105] الأراك، سهل يعرف بمرج الحديد يقع شمالي قرطبة، قرب قلعة رباح؛ انظر، المراكشي عبد الواحد، المعجب، ص ٢٠٠، ه١ (طبعة ١٩٩٨).

[106] العقاب، موضع يقع شمال شرقي حفص البلوط، وشمالي مدينة بياسه وإيذه، المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٣٠ (طبعة ١٩٩٨).

[107] أجمعت المصادر التاريخية أن هزيمة العقاب كانت ضربة موجعة للتجربة الموحدية، ليس بالنظر إلى حجم الخسائر العسكرية والتي كان لجند الخليفة دور فيها- حسب رواية المراكشي- وإنما لما أحدثته من تفكك اجتماعي بتقوية حركات الانفصال والتمرد عن السلطة المركزية، وما صاحبها أيضا من توتر وإحباط نفسي لدى خاصة الناس وعامتهم حتى أن الخليفة محمد الناصر (٥٩٥- ٦١٠هـ/١١٩٨- ١٢١٣م) أذهلته نتائج هذه الكارثة التي كانت بحجم الزلزال الذي تردد صداه في كل بلاد المغرب، فآثر الاعتزال أوالانكباب على ملذاته -حسب تعبير أحدهم - لأجل ذلك ربطت المصادر التاريخية بنوع من المجازفة جميع مظاهر التدهور التي عرفته بلاد المغرب بعد الانتكاسة، حول هذا الموضوع، يراجع، المعجب، ص٢٣٠؛ المغراوي، المرجع السابق، ص ١٦٤ وما بعدها.

[108] عبد الله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط٢، دار الكتاب للطباعة والنشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.، ص ٦٢٧؛ علي أحمد، المرجع السابق، ص ٩٠.

وقصارى القول ودون أن نعاود التعمق فيما سبقنا إليه بعض الباحثين، فإن ما قدمته من شواهد وقرائن تاريخية ما هي في الحقيقة إلا ترجمة أمينة لمختلف المظاهر السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية في بعض جوانبها.

والسؤال المطروح وأمام كل ما قدمناه من معطيات: **هل يمكن القول أن هجرة علماء زواوة إلى الأندلس كان من منطلق توسيع مداركهم العلمية بلقاء كبار الشيوخ؟ أم بحثا عن الوظيفة للاسترزاق نظرا للتوافق المذهبي بين العدوتين؟ لاسيما وأن بجاية كانت تعج بأمثالهم من الفقهاء وشيوخ الفتيا، أم نتيجة لضغوط تعرض لها هؤلاء اضطرتهم إلى مغادرة بجاية؟**

والواقع أن ما توفره المصادر من مادة خبرية لا تقدم إجابة مفصلية لكل هذه الأسئلة، غير أن بعض الإشارات الواردة في ثنايا بعض النصوص فيها من الإيحاء ما قد يساعدنا على فهم الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هجرة هؤلاء الأعلام، دون أن نسقط من اعتبارنا ما كن يقدمه ملوك بني الأحمر في غرناطة من اهتمام بالأطر العلمية المغربية من بذل للأرزاق والجرايات.[١٠٩]

فباستثناء ما ذكره المراكشي (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م) في ترجمته لعمر بن محمد بن مخلوف التدلسي (ت٦٢٨هـ/١٢٢٨م) الذي دخل بلنسية طالبا للعلم،[١١٠] فإن معظم المترجم لهم من الزواويين - على قلتهم - وفدوا إليها لظروف خاصة أواستثنائية، فأبي محمد الزواوي من أعلام القرن ٨هـ/١٤م الذي عانى من الرقابة التي كان يفرضها الولاة الحفصيون

---

[109] رغم مظاهر العداء السياسي والصراع العسكري الذي كان على أشده بين ملوك الطوائف إلا أن ذلك لم يمنع من الاهتمام بالحياة الفكرية، فقد تنافس هؤلاء فيما بينهم في استقطاب خيرة العلماء والفقهاء وبما وفروه من مستلزمات لأجل نهضة علمية شاملة، ولعل ما قام به ملوك بني الأحمر في مملكة غرناطة وبخاصة في عهد سلطانها أبوالحجاج يوسف (٧٣٣- ٧٥٥هـ/١٣٣٢- ١٣٥٤م) من جهود في بناء المدارس والكتاتيب واقتناء الكتب، يعكس التوجه العلمي لهذه الأسرة، ولا نعدم من القرائن ما يزكي هذا الطرح، فالشواهد الأثرية لمظاهر العمران لازالت قائمة إلى يومنا هذا.

[110] الذيل والتكملة، ص ٢٣٩.

على نشاطه العلمي، غادر بجاية مكرها إلى الأندلس فدخل المرية وحلق بجامعها للتدريس، فانتفع به عدد كبير من طلبة العلم[١١١] منهم ابن جابر الأندلسي. [١١٢]

ومثله أيضا محمد بن يعقوب بن يوسف المنقلاتي (ت٧٣٠هـ/١٣٣١م) الذي كان واحدا من ضحايا النظام الحفصي، نتيجة لما لحق به من إهانات بعد عزله من منصبه في القضاء، فآثر الانتقال إلى المرية سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م - ليتجاوز المحنة التي ألمت به- وجلس بإحدى مساجدها يقرئ الناس الفرائض من مختصر ابن الحاجب[١١٣]، وقد أشاد علماء الأندلس بأدبه وفضله وعمق تحصيله وتبحره في كثير من الفنون لاسيما منها علم الفروع.[١١٤]

وعلى غرار ما عاناه بعض رجالات العلم من تعسف وإقصاء من قبل السلطة الحفصية إلا أن ما تعرض له عمر بن علي المليكشي (٧٤٠هـ/١٣٤٠م) في معتقله ببجاية يعد مأساة حقيقية - حسب رواية ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ/١٣٧٦م) - بعد أن اتهم في بعض القضايا لم تفصح المصادر عن طبيعتها، فاضطر بعد خروجه من المعتقل إلى التوجه إلى غرناطة سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م حيث أكرم السلطان إسماعيل الأول (٧١٣- ٧٢٥هـ/١٣١٥-١٣٢٥م) وفادته وانتدبه للعمل تحت جراية واسعة.[١١٥]

أما أبي علي منصور الزواوي (ت٧٧٠هـ/١٣٧٠م) الذي دخل الأندلس سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٣م وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد أسباب هجرته، إلا أن المصادر التي

---

[111] ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج١، تحقيق محمد الأحمدي أبوالنور، ط١، المكتبة العتيقة، ١٩٧٠، ص ١٠١؛ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس في أوائل القرن السابع إلى أواسط القرن العاشر، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص ٥٣٠.

[112] ابن جابر، هوشمس الدين بن عبد الله محمد بن علي بن جابر الهواري الأندلسي المري، ولد سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، توفي أواخر القرن ٨هـ/١٤م، كان أحد شيوخ القراءات والحديث، انظر، فروخ عمر،تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس في أوائل القرن السابع إلى أواسط القرن العاشر، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص ٥٣٠.

[113] التنبكتي، كفاية المحتاج، ص ٣٠٠.

[114] نفسه، ص ٣٠١.

[115] الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت. ، ج٢، ص ٥٦٣؛ مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٣٠، ص ٢٣٤.

ترجمت لسيرته العلمية أشادت بدوره في تنشيط حلقات الدرس، [١١٦] وحسبنا أن الفقيه ابـــن الفخار (ت٧٦٠هـ/١٣٦٠م) اضطر أن يتنازل له عن موضع درسه، ويحلق مع بقية الطلبـــة للأخذ عنه، وأن الوزير ابن الخطيب – مع ما كان ما يتمتع به من مكانة سياسية وأدبية- إلا أن فضوله العلمي لم يمنعه من طلب الإجازة له ولأولاده، وقد حفظ لنا في إحاطتـــه نـــص الإجازة التي منحه إياها شيخه جاء فيها: «وكتب الشيخ الأستاذ أبي علي يقول: أبومنصور بن علي الزواوي في رابطة العقاب[١١٧] " كذا أجزت صاحبنا الفقيه المعظم أبا عبد الله الخطيب وأولاده الثلاثة عبد الله ومحمد وعليا أسعدهم الله جميعا ما يجوز لي وعني روايته".[١١٨]

ومن تلامذته أيضا الفقيهين محمد بن يوسف أبي عبد الله المعروف بابن زمرك كان حيا سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٤م[١١٩] وسميه أبي إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ/١٣٨٨م)[١٢٠] اللذان كانا من خواص مجالسه العلمية.

---

[116] جرت العادة لدى بعض البيوتات العلمية في الأندلس كغيرها من مدن العالم الإسلامي إلى تخصيص جناح من بيوتهم لاستقبال أواستضافة أقرانهم من الأدباء والفقهاء، ومن هذا المنظور يذكر النباهي أن القاضي أبي القاسم شريف غرناطة (ت٧٦٠هـ/١٣٦٠م) حول بيته إلى منتدى يجتمع فيه مع خاصة أصحابه للمذاكرة في شتى ضروب المعرفة، ومن بين العلماء الذي كانوا يترددون على مجلسه منصور الزواوي الوزير لسان الدين بن الخطيب وأبي عبد الله بن راجح السوسي، انظر، تاريخ قضاة الأندلس ""المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا"" ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ١٧٣- ١٧٤.

[117] يعتبر رباط العقاب الذي يقع في إحدى ضواحي غرناطة من أشهر الرباطات التي كان يتردد عليها الشيوخ الصوفية، وقد بلغ عدد الربط بها نحوثلاثة وأربعين رباطا حسب ما تفيد به المصادر التاريخية، انظر، محمد مفتاح، الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية، ط١، توزيع مكتبة الرشاد، المملكة المغربية، ١٩٩٧، ص ٥٠.

[118] الإحاطة، ج٣، ص ٣٢٩؛ الشاطبي، الإفادات والإنشادات، تحقيق محمد أبوالأجفان، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٣.

[119] هوالفقيه والأديب محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصرحي أبي عبد الله، يعرف بـــابن زمرك، كان أحد فضلاء غرناطة ومفاخرها، درس عن لفيف من العلماء المغاربة والأندلسيين، مـــنهم منـــصور الزواوي الذي أخذ عنه علم الأصول، وقد خصه التنبكتي بفيض من نعوت التحلية مشيدا بفهمه وعلوكعبه في شتى فروع المعرفة، تولى الكتابة في ديوان مملكة بني الأحمر خلفا للوزير لسان الدين ابن الخطيب، راجع حول ترجمته، نيل الابتهاج، ص ٢٨٢- ٢٨٣.

[120] هوإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي أبوإسحاق ناصر السنة أحد محققي العلماء الإثبات، له قدم ثابت في شتى فنون المعرفة، منها الفقه، الأصول، التفسير، علوم الحديث، من مصنفاته، كتاب الموافقات، الإفادات والإشادات، الإتقان في علم الاشتقاق، وكتاب في أصول النحو، وله مجموعة فتاوى، يراجع حول ترجمته، التنبكتي، كفاية المحتاج، ص ٩١- ٩٣.

وتأتي أهمية مما ذكرنا من أمثلة للطلبة الذين أخذوا عن منصور الزواوي من باب التأكيد على الدور الذي بذله في تأطير الحركة الفكرية بمملكة غرناطة، لاسيما وأن المدينة كانت تشكوا حالة العوز للكوادر العلمية من ذوي المستوى العالي بعد عملية الإفراغ الديموغرافي لمعظم المدن الأندلسية نتيجة حروب الاسترداد.[١٢١]

ومن الأعلام المهاجرين أيضا العلامة أبوسرحان الزواوي (٨٠٣هـ/١٤٠٥م) الذي قضى معظم حياته متنقلا بين الحواضر المغربية، زار منها مدينة سبتة، فاس، تازة، وتلمسان، ثم عبر إلى الأندلس واستوطن مدينة المنكب،[١٢٢] حيث أسندت إليه الإمامة والخطابة بمسجدها إلى جانب ما كان يعقده من مجالس لإقراء الفقه والفرائض. [١٢٣]

[121] وحول هجرة علماء الأندلس إلى إفريقية والمغرب يراجع، محمد الطالبي، الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين، مجلة الأصالة، العدد١٩، ٢٦ ، دار البعث، قسنطينة، ص ٤٧ وما بعدها.

[122] مدينة المنكب، بلدة صغيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من مملكة غرناطة، كانت تسمى في القديم ساكسي Sexi باللفظ الروماني وتعني بالعربية الحصن، وتعرف في الوقت الحالي باسم Almunear وتأتي أهمية المدينة من مرفئها التجاري الذي كان تتردد عليه سفن التجار المسيحيين، هذا إلى جانب ما تحتويه من حقول وبساتين تنتج أصناف الثمار والغلال، راجع حول هذه المدينة، ابن الخطيب، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس، تحقيق مختار العبادي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ص ٧٧، والهامش ١ من نفس الصفحة.

[123] عبد الوهاب بن منصور، أعلام من المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٩، ج٢، ص ١٨٧.

الخاتمـــة:

قصارى القول أنه مهما تعددت الأسباب والظروف المحيطة بعلمـــاء زواوة الـــذين هاجروا إلى الأندلس، إلا أن الرغبة في التواصل وتوثيق السند العلمي، تبقى من أقوى الدوافع التي أسست لهذا العمل الثقافي، الذي صار من التقاليد المتجذرة في الأوساط العلمية، ومـــن القرائن التي نسوقها للبرهنة على هذا الطرح أن العلامة ابن رشد الجد (ت٥٢٠هـ/١١٢٠م) كانت تصله طلبات الإفتاء وبعض القضايا التي يثار حولها الجدل من بجايـــة، والقيـــروان، وسبتة، ومراكش،[١٢٤] وفي نفس السياق دلت مضامين كتب النوازل الفقهيـــة عمـــق هـــذا الاتصال الوحدوي، فعادة ما نقرأ في الإجابات والتعقيبات العبارات الدالة على ذلك منها: وقد أفتى شيخنا... من الأندلس... ووردت فتوى... وقد أجاب عنها فقيه الأندلس، وبعـــث أهـــل المغرب،[١٢٥] وغيرها من الألفاظ التي تعكس حجم هذا التواصل الذي تخطى حدود الجغرافيا السياسية التي رسمها الحكام، ومن المفيد أن نذكر في هذا المجال أن إسهامات علماء زواوة في تكوين الأطر الأندلسية لم يتوقف على من هاجر إليها من الزواويين فحسب، فقد كـــشفت بعض كتب التراجم والرحلة عن أسماء لشريحة عريضة من طلاب العلم الأندلسيين الـــذين درسوا على علماء زواوة ببجاية، تلمسان، القيروان، وفاس.[١٢٦]

وحسبنا في الأخير أن ما قدمناه من قرائن تاريخية تفند كل المقاربات الأنتربولوجية والأثنولوجية التي روج لها رواد الطرح الكولنيالي الذي حاولوا جاهدين إبراز خـــصوصية سكان زواوة وانتمائهم العرقي للجنس الأوربي، هذا إلى جانب الرد على الطرح الذي تبنـــا رائد المدرسة الأنجلوسكسونسة أرنست غيلنر الذي صنف سكان قبيلة زواوة ضمن القبائل " الهامشية " التي لم تندمج في المنظومة العربية الإسلامية.

---

[124] رحمة تويراس، تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الأدب، الرباط، السنة الجامعية ٢٠٠٤/٢٠٠٥، ص ١٨٤.

[125] يرجع في هذا الموضوع، كتاب المعيار المعرب للونشريسي في كل أجزائه وفي مواضع كثيرة.

[126] حول تراجم الأعلام الأندلسيين الذين أخذوا عن علماء زواوة انظر، التنبكتي، نيل الابتهاج؛ الوادي آشي، البرنامج؛ التاج المفرق لخالد البلوي؛ التجيني، مستفاد الرحلة والاغتراب؛ وأيضا كتابه، البرنامج.